



سفير فوق العادة

د . عبدالقدوس أبو صالح

كان عضد الدولة البويهى قد اتخذ في شيراز مجلساً لأهل العلم والحكماء والفلاسفة، ولما رأى خُلُو مجلسه من أهل السنة استدعى إليه أبا بكر الباقلااني من البصرة.

وتحدث الباقلااني عن دخوله على عضد الدولة وهو لا يعرفه فقال: «دخلت على عضد الدولة والناس قد اجتمعوا، والملك قاعد على سرير ملكه، والناس صفوف على يسار الملك، وفوق الكل قاضي القضاة بشر بن الحسين... فلما رأيت ذلك كرهت أن أتقدم على الناس، وأتخطى رقابهم من غير أن أرفع، ولم تدعني نفسي أن أقعد في أخريات الناس، وكان المجلس عن يمين الملك خالياً، ولا يقعد هناك إلا وزير وملك عظيم، فمضيت وقعدت عن يمينه بجذاء قاضي القضاة، فوجدوا من ذلك، وفزعوا واضطربوا، لأنه كان عندهم من الجنايات العظام، ونظر الملك لقاضي القضاة نظراً منكراً، وما في المجلس من يعرفني إلا رجل واحد، فقال للقاضي: هذا هو الرجل الذي طلبه الملك من البصرة، فأعلم القاضي الملك بذلك، فقال عضد الدولة: اذكروا له مسألة...».

ولما طرحت المسائل على أبي بكر وأفحَم بأجوبته شياطين المعتزلة والرافضة قال الملك لقاضيه: «فكرت بأي قتلة أقتل هذا الرجل لجلوسه حيث جلس بغير أمري، وأما الآن فقد علمت أنه أحق بمكاني...».

وظل الباقلااني أثيراً لدى عضد الدولة حتى جعله سفيره إلى ملك الروم سنة ٣٧١هـ.

قال الباقلااني: «فخرجت من بغداد إلى بلاد الروم حتى وصلنا إلى القسطنطينية، وأخبر الملك بقدومنا، فأرسل إلينا من يلقانا، وقال: لا تدخلوا على الملك بعمائمكم حتى تدعوها.. وحتى تنزعوا أخفافكم. فقلت: لا أفعل ذلك، فإن رضىتم وإلا فخذوا الكتب التي معنا وأرسلوا بجوابها، وأعود بها، فأخبر الملك بذلك فقال: أريد معرفة سبب هذا وامتناعه عما مضى عليه رسمي مع الرسل، فسُئِلت عن ذلك فقلت: أنا رجل من علماء المسلمين وما (تريدونه) منا ذلٌ وصفار، والله تعالى قد رفعنا

بالإسلام، وأعزنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، سيّما إذا كان الرسول من أهل العلم، ووضع قدره انهدام جانبه عند الله تعالى وعند المسلمين...». ولما أدخل الباقلاني على ملك الروم بلباسه ذكره أن رسول الروم قد دخل بملابسه على أمير المؤمنين الطائع، وأدخل بها على السلطان عضد الدولة، ثم قال للملك: «فما تتكرون عليّ هذا، وأنا رجل من علماء المسلمين؟ فإن دخلت بغير هيئتي، ورجعت إلى حكمك أهنت العلم ونفسي، وذهب عند المسلمين جاهي».

فقال الملك لترجمانه: «قل له: قد قبلنا عذرک، ورفعنا منزلتك. وليس محلك عندنا محلّ سائر الرسل، وإنما محلك محلّ الأبرار الأخيار، وقد أخبرنا صاحبكم في كتابه أنك لسان المسلمين والمناظر عنهم، وأنا أشتي أن أعرف ذلك منك كما ذكروه عنك».

وطرح ملك الروم على الباقلاني أسئلة متعددة عن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وعن حقيقة المسيح بن مريم عليه السلام، وأجاب رسول الخليفة وسفيره بما بُهت به الملك وقساوسته، وكان من أطرف ما جرى في تلك المحاورات التي امتدت مجالس عدة أن الباقلاني قال لبعض المطارنة: كيف أنت؟ وكيف الأهل والأولاد؟

فقال له الملك وقد عجب من قوله: ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ومتقدم على علماء الملّة! أما علمت أننا ننزّه هؤلاء عن الأهل والولد؟

فقال الباقلاني: أنتم لا تتزهون الله تعالى عن الأهل والأولاد، وتتزهون هؤلاء؟ فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجل من الله سبحانه وتعالى، فسقط في أيدي الملك ومطارنته ولم يردوا جواباً.

وروى القاضي عياض: أن ملك الروم قال لبطرك: ما ترى في أمر هذا الشيطان؟

فقال: تقضي حاجته، وتلاطف صاحبه، وتبعث إليه بالهدايا، وتخرج هذا عن بلدك من يومك إن قدرت، وإلا لم آمن من الفتنة به على النصرانية. ففعل الملك ذلك، ووكل بالباقلاني من جنده من يحفظه حتى يصل إلى مأمنه.